

تيمة الفضاء الصحراوي وعبقورية الإبداع السردي

The Theme of desert space and the genius of narrative  
creativity

\* (ط.د.) سليمان قاشوش<sup>1</sup> أ.د. براهيم عبد النور<sup>2</sup>

Slimane Gachouche<sup>1</sup> Brahim Abdnnour<sup>2</sup>

مخبر الدراسات الصحراوية، جامعة الطاهري محمد - بشار - الجزائر  
University of Tahri Mohmmmed Bechar -Algeria  
gachouche676@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 2020/04/15 تاريخ القبول: 2020/07/21 تاريخ النشر: 2020/11/07

ماتخص البحث

يكتسي الفضاء الصحراوي في الرواية العربية الجديدة . أهمية بالغة، نظرا لما يمكن أن يكشف عنه من آفاق واسعة للمغامرة والتجريب، وما يحيل إليه من عوالم أسطورية وعجائبية، وقد أصبح حضور " تيمة الفضاء الصحراوي " في الرواية العربية لافتا للنظر في السنوات الأخيرة، وانبت حوله كثير من الأعمال الروائية المميزة، خصوصا عند إبراهيم الكوني الذي استطاع أنسنة المكان، وربطه بمجموعة من المبادئ والقيم المتوارية خلف بنية النص الفنية، ونسيجه القصصي، أما في الرواية الجزائرية فقد بدأت المحاولة مع كتاب الرواية من أبناء الشمال، الذين انتقلوا للصحراء لظروف خاصة، وكتبوا عنها بعدما عاشوا أهلها، ليتلقفها أبناء الجنوب، أبناء الفضاء الصحراوي، الذين خيروا طبيعة الصحراء وتأقلموا مع ظروفها القاسية، وهم الذين يُنتظر منهم أن ينفخوا في كتاباتهم من روح الصحراء، فتتكلم الصحراء في رواياتهم بدل أن تتكلم رواياتهم عن الصحراء .  
الكلمات المفتاحية : تيمة، فضاء، صحراء، رواية، سرد، تجريب

**Abstract**

The desert space is of great importance in the new Arabic novel - due to the wide horizons that can be revealed for adventure and experimentation, and the mythical and miraculous worlds it refers to. The presence of the "desert space theme" in the Arabic novel has become remarkable in recent years, and has grown around it. Many distinctive fictional works, especially according to Ibrahim Al-Koni, who was able to humanize the place, and link it to a set of principles and values hidden behind the technical structure of the text and its narrative texture. As for the Algerian novel, the attempt began with the novel writers from the sons of the North, who moved to the desert for special circumstances, and wrote After living with its people, to be captured by the people of the south, the sons of the desert space, who have

\* سليمان قاشوش . gachouche676@yahoo.com

experienced the nature of the desert and have adapted to its harsh conditions, and they are the ones who are expected to blow into their writings from the spirit of the desert, so that the desert speaks in their stories instead of their stories about the desert.

**Key words:** theme, space, desert, novel, narration, experimentation



## مقدمة

الصحراء فضاء واسع رحيب ورهيب، مترامي الأطراف، يمتد أفقه أمام الناظر فيرجع بصره خاسئا وهو حسير، تشكيلاته المتنوعة تضفي عليه شيئا من الهيبة والجلالة سواء كانت في شكل بحار من الرملة أو في شكل أوتاد من الجبال السامقة الجرداء أو في استواء تام حتى تطبق السماء على الأرض، تضيف الطبيعة إلى ذلك الفضاء قساوة مطلقة في جذبها وقلة مائها وشدة حرارتها وشساعة مساحتها، والإنسان العربي ابن هذه البيئة الصحراوية، من الطبيعي جدا أن يبدع في وصف العلاقة التي تربطه بها، وأن يسعى جاهدا ما أمكنه في أن يحافظ على استمرارية هذه العلاقة بكل ما تحمله تبعاتها من آثار جانبية .

وقد تكاثرت لديه أسماؤها حتى بلغت نحو الأربعين اسما، وإن كان قد غلب عليها مسمى الصحراء، التي اشتقتها من صحر، حيث "الصاد والحاء والراء أصلان: أحدهما البراز من الأرض، والآخر لون من الألوان. فالأول، الصحراء: الفضاء من الأرض، ويقال أصحر القوم إذا برزوا، ومن الباب قولهم: لقيته صَحْرَةً بَحْرَةً، إذا لم يكن بينك وبينه ستر...، والأصل الآخر: الصُّحْرَة، وهي لون أبيض مشرب حمرة، وأتان صحراء: في لونها صُحْرَة، وهي كُهْبَةٌ في بياض وسواد، ويقال: اصحارَّ النبات، إذا هاج؛ وذلك أن لونه يتغير ويختلط"<sup>1</sup>. وتعددت أوصافها عنده وتنوعت" قال ابن شميل: الصحراء من الأرض مثل ظهر الدابة الأجرد، ليس بها شجر ولا إكام ولا جبال ملساء. يقال: صحراء بينة الصُّحْر والصُّحْرَة، وأصحَر المكان أي: اتسع"<sup>2</sup>.

وما هذه العناية بهذا الشكل إلا دليل على اهتمامه بكل جزئياتها وبأدق تفاصيلها، ومع أن هذا الإنسان حاول أن يعرف كيف يتعامل معها، وكيف يعايشها، وتعلم منها الكثير من الدروس التي كانت بمثابة الأسس الأولى لقيام الحضارة البشرية، إلا أنها ظلت تمثل له الخطر الأكبر

مع كل مغامرة يوشك على القيام بها، يحاول من خلالها اختبار نفسه ليكتشف مدى قدرته على تحدي الصحراء، وعلى إحراز نوع من التقدم في إخضاعها، أو كسب مودتها وتعاطفها على الأقل .

### أولا : الإنسان والفضاء الصحراوي :

ارتبطت حياة الإنسان منذ بدايتها بالصحراء، بحيث أنه تشرب من خلال حله وترحاله بمختلف مناطقها كثيرا من مشاعر الألفة والحنين، وهو ما استطاع أن يفجر لديه طاقة إبداعية خالدة، تنوعت في أشكالها ومضامينها ودلالاتها، حسب طبيعة كل مكان وحسب متطلبات كل مرحلة من مراحل حياة الإنسان فيها، فقد كانت الرسومات والآثار طريقة للتعبير عن نمط التفكير وصورة من صور الإبداع في وقت من الأوقات، كشف من خلالها عن كثير من الطموحات التي سعى الخلف إلى تحقيقها إجلالا وتقديرا للفاتح الأول لهذا الفضاء الصحراوي، ولكنه يعجز حتى الآن عن ذلك، ثم كان الرسم بالكلمات والإمتاع بالحكايات والوصف بالأشعار تمجيدا لبيئة كان لها الفضل في احتضان نشاطاته الثقافية والروحية وممارساته اليومية على كافة المستويات إذ لم يقتصر أثر الصحراء في الشعر العربي على وضع الأسماء والصفات الخاصة بالصحراء وما يتصل بها من مفردات وألفاظ... بل تجاوز تأثيرها إلى آفاق أخرى شملت موضوعاته وأخيلته وإيقاعاته<sup>3</sup>، وقد صور كل ذلك بأساليب بديعة وألفاظ موحية غاية في الروعة والجمال .

أبان الإنسان العربي في الجاهلية من خلال طريقة تعبيره عن طبيعة تلك العلاقة التي تربطه بالصحراء بمختلف تنوعاتها المكانية والزمانية بين الشد والجذب منذ مساسه الأول معها، علاقة تركت جدلا ما يزال قائما حتى الآن، ليصل اليوم - في عز التطور الرقمي والتكنولوجي - إلى سرد مضامين حياته وربط حاضره بماضيه عن طريق القصص والروايات وأن يمزج فيها بين الواقع والخيال وأن يعبر من خلالها عن ارتفاع سقف طموحاته في ترويض هذا المكان أو ذاك، إلا أن الصحراء بقيت هي الصحراء، في تحديها وكبرياتها وتمنعها....

ومع مرور الزمن، ارتسمت صورة هذه الطبيعة بكل تناقضاتها من لين وقسوة، ورحمة وشدّة، ووصال وانفصال وعطاء وحرمان...، وتبدت في كل طور من أطوار حياته بذات الإنسان العربي وخواجه وارتبطت دلالاتها مع مكونات المكان المختلفة لتظهر في النهاية صورة كاملة ذات دلالة عميقة فالإنسان بمشاعره وعواطفه ومزاجه يأخذ من الطبيعة طقوسها كالفنان الذي يختار من

الألوان ما يساعده على تنفيذ لوحته الفنية ويساعده على أن ينقل ما يريد أن يقول"<sup>4</sup>، وهو ما اضطره إلى أن يطور لغته في كل مرحلة من مراحل حياته في هذه البيئة، لتناسب مع مختلف نشاطاته، وتمكنه من التعبير عنها .

### ثانيا : عبقرية اللغة والإبداع السردي:

امتلك العرب منذ نشأتهم الأولى مقوما هاما يحفظ كيانهم ويراعي هويتهم، تمثل هذا المقوم في اللغة العربية، التي تعززت مكانتها أكثر عند ارتباطها بالدين الإسلامي الحنيف، فهي لغة القرآن الكريم، الذي أعطاهما قدرة على الاستمرارية وأمدتها بطاقات وظيفية متنوعة ولذا "فإن ما يجب أن نحتكم إليه في دراسة لغة من اللغات، ليس ميراثها ومنجزاتها، وأعمالها وإنما قدرتها وطاقاتها، وذلك بتحليل سيرورتها اللغوية، لأن اللغة الإنسانية تتطابق دائما مع أشكال الحياة الإنسانية المختلفة"<sup>5</sup>، حتى اكتسبت طبيعة فلسفية خاصة، هذه الخلفية الفلسفية للغة، هي التي كشفت عن حياة هذه اللغة وعن طبيعة ارتباطها بنشاط الإنسان في أي بيئة كانت، وليس الحديث عن علاقة الإنسان العربي بالبيئة الصحراوية إلا حديث عن علاقته بهذه اللغة، وعن تجلي تلك البيئة بكل خلفياتها في أشكال فنية وإبداعية متنوعة ومبتكرة .

فكانت الرواية التي هي " نمط أدبي دائم التحول والتبدل، يتسم بالقلق، بحيث لا يستقر على حال، وكل عمل روائي يجاهد بدرجات متفاوتة في قوتها ودقتها الفنية، لكي يعكس عملية التغيير الدائبة، بل وحتى الدعوة للتغيير في بعض الأحيان"<sup>6</sup>، هي الشكل الأنسب لهذه المرحلة في تبليغ رسالة الصحراء إلى الناس قاطبة عن طريق اللغة، بما لها من وظيفة محورية وهامة لبيان طبيعة تلك العلاقة في العصر الحديث، ولما لها من أهمية قصوى في تشكيل المكان الروائي، فإذا كانت أصباغ الرسم وألوانه، وخطوط المهندس وأشكاله هي التي تحكم المكان لديهما، وتخرجه على حسب طبيعة كل فن، فإن اللغة عند الروائي هي التي تتحكم في أمكنته على اتساعها وتحدد ملامحها وتعيد تشكل هياتها وتزخرق هندستها بالوصف المناسب، لتكشف عن عبقريته وإبداعه .

هذا المكان هو الصحراء بكل شساعتها وامتدادها، وبكل شدتها وعنفوان، وبكل خباياها وكنوزها، والمبدع هو ابن الصحراء، تقلب في رحمها ووقململ في أتونها، وعاش الحرمان بكل ألوانه مع أي خطوة يخطوها فيها، وكابر معاندا أحلامه التي كبرت معه ولم يُكتب لها أن تتحقق حتى في الحلم ..، منها انطلق في تشييد حضارة الكون وإرساء قيم الصفاء والصبر والتحدي حتى غدت

جزءاً من حياته، استمد منها تجاربه، ونهل من نبعها فلسفة حياته، " ومادامت الصحراء هي عالم الاقتصاد الكوني حيث كل شيء بنصيب، فإن معاني الصبر والحكمة والتريث، والاقتصاد في القول والفعل، تصبح سلوكيات مرغوباً فيها لتحقيق منافع نفسية واجتماعية وذهنية ضرورية، كالتأمل والخلاص والرفي والسمو والبهاء والتأمل"<sup>7</sup>، وهذا تأكيد على أن المنابع الأولى للحكمة كانت منطلقاً من الصحراء .

### ثالثاً : - المنجز السردي في رواية الصحراء :

يتملك العرب اليوم موروثاً ثقافياً ضخماً، يعود جزء كبير منه إلى وقت عاش فيه العرب في الصحراء، جماعات في قبائل، أو فرادى في خيام متفرقة وموزعة على بطون البوادي، وبين فجاج الجبال أو وسط كتبان الرمال، ولا يعجب الإنسان أنهم نقلوا إلينا - في شعرهم خاصة - تعلقهم الشديد بتلك البيئة الصحراوية، وفرحهم بتواجدهم بها، وشغفهم بالاستمرارية بالتواجد فيها، لا يرددهم عن الخلود بها إلا الموت .

ولا غرابة في ذلك، فقد خبروا الصحراء وألفوا دروبها، ورؤوا من تلك الدروب ما أمدتهم به الأيام، وتركوا ما تبقى منها عصياً لخلفهم حتى يستكمل المهمة، لذلك نجدهم ينقلون لنا تلك الصحراء في مشاهد أقرب ما يكون منها للخيال، مشاهد مفعمة بالحياة في أقصى بقاع الأرض، مشاهد تنبض بالحياة والنشاط من قلب السكون المطبق، مشاهد تكشف عن طمأنينة الفرد وراحة البال وسكينة النفس في أكثر المناطق جدبا وأشدّها حرا، وأمدّها اتساعا، مشاهد أقل ما يقال عنها على أنها " قاتلة " ولكن أنفسهم المفعمة بحب المكان صورته لنا جنة الله في الأرض، التي لا تضاهيها جنة، مشاهد جعلت ممن كثير من أمكنتهم العادية خيالا موعلا في الغرابة، تمثلت حل تلك المشاهد في موروثهم الشعري الذي اكتسب بفضل صمود الصحراء في هذا الوجود خلودا وديمومة .

ولكن الإنسان العربي ومع تغير الظروف المحيطة به، والتي بدأت في دفعه ناحية التمدن أكثر، تغيرت وجهة تعايشه وأصبح في ظل الحضارة أشد التصاقا بالمدينة، ونزح نحوها بنوع من الانفتاح على متطلباتها المادية والفكرية، وأصبح تواجهه في الصحراء قليلا إن لم نقل نادرا مقارنة بتواجده بالمدن حتى وافي عصر الرواية ووجد الإنسان العربي نفسه يكتب عن ذاته المأزومة بأمراض التمدن المختلفة والخطيرة من ازدحام وفوضى وأنانية واستغلال وعنف وغيرها .

ولكنه لما التفت إلى موطن أسلافه، واستشعر نوعا من التفريط في ذلك الإرث، وأحس بمقدار ذلك الإهمال الذي طاله، باعتباره جزءا مهما من تراثه الطبيعي<sup>8</sup>، على الرغم من أهميته وخطورته على مستقبله ولذلك " نستطيع أن نقول إن حضور التراث في الوعي العربي وشعور هذا الوعي بالهوة التي تفصل هذا التراث عن معطيات العصر الحاضر المادية والفكرية هو الذي يبرر ويفسر هذا القبول العام بل هذا التجاوب الواسع الذي تحظى به على الساحة الفكرية العربية المعاصرة عبارة " التراث وتحديات العصر"<sup>9</sup>، فلما حاول هذا الإنسان أن يفتش عن صحرائه في رواياته القديمة منها والجديدة لم يعثر على شيء يذكر إلا عند بعض الكتاب الذين شعروا بالإحساس بالذنب مبكرا فراحوا يكفرون عنه بتقديم بعض الأعمال الروائية كقرايين للصحراء عليها تقبل عذرهم وتصفح عنهم.

فانتبه هذا الإنسان مشدودا بماحس الهوية وبميله الفطري لفضاء خلقته الأولى، ذلك الفضاء اللامتناهي والذي لم يبخل عليه يوما بأن يدفعه للإبداع دفعا ف"لوج الصحراء فتح لإمكانية السرد أن تعيش وترى وتحكي عما رأته، والرؤية هنا لا تأبه كثيرا بالمنظور الحسي بل تتعداه، فالصحراء هي واحدة من محرضات روح المغامرة الإنسانية، وهي التي توسع أفق التصور اللائذ في ضباب الميتافيزيقيا... هناك تختل قواعد الوعي التقليدية ويغدو ما هو محال ممكنا، ويكون سؤال الوجود والمصير عالقا أبدا أمام عين المرء وهو يبحث عن جنته المفقودة، أو قل حقيقة نفسه وعن موقعه في هذا العالم"<sup>10</sup> حيث لا يجد ساكن الصحراء بدا من الدفاع عنها، سواء جبا لها أو دفاعا عنها ضد من تسول له نفسه المساس بشبر منها، حتى ولو تطلب منه الأمر إنكار ذاته حين ترصد عيون الطمع، وتتحرك فيها غريزة الشر، وهي تنوي الفتك بعذريتها من أجل تحقيق منافع مادية، إما عن طريق الجوسسة، أو عن طريق أنشطة اكتشاف الآثار أو تعقب كنوز الذهب الدفينة أو توسع الشركات البترولية " ...استيقظ الأهالي على هدير سيارات الشركة اليونانية، وراقبوا قوافل شاحناتها وهي تنحدر من الجبال الشمالية الموحشة بسرعة بطيئة وقد ارتفعت فوقها الآلات والرافعات والحفارات...، فما إن بدأ المحرك يهدر في الأطراف الغربية - خلف الغابة - وبدأت الآلات الوحشية تفترس الأديم وتخترق الأرض حتى دبت الحركة... "<sup>11</sup> وبل وقد يتعدى الأمر ذلك كله، إلى أنشطة أشد خطورة وأكثر ضررا، مثل ما حدث في صحراء الجزائر التي شهدت جريمة "بيراييع رقان"<sup>12</sup> التاريخية، وقد تفاعل الروائيون العرب مع هذه

الأحداث، فحركت فيهم الغيرة دوافع الغريزة والفطرة التي لا يعدها إنسان عربي قط "ورصدوا لحظات التحول في الصحراء، لحظات الاختراق التاريخية مع دخول المستعمر واكتشاف النفط وبناء المدن وانتشار وسائل التقنية ومؤسسات الإدارة الحديثة..."<sup>13</sup>

وهي صور محزنة مخزية، ومؤلمة صور السرد من خلالها - فيما يبدو - لحظات استسلام الصحراء وقدرة هذا الكائن العجيب على ترويضها لصالح رغباته المادية، مدفوعا إلى ذلك بجمشع بغيض قد يغير من طبيعة الصحراء، ويشوه مناظرها الممتعة، ويفتك بعذريتها وهذا بتنامي العمران وبمزيد الاخضرار وجريان المياه وشق الطرقات وتكاثر الحركة، والتطاول على الوصول إلى أي مكان فيها، بتيسير حركة التنقل من مشارقها إلى مغاربها في رمشة عين .

ولولا أعمال إبراهيم الكوني التي سدت بعض الفراغ في الفضاء الصحراوي، وما انجر عنها من مرافقة نقدية، فتحت الباب للكتابة في تيمة الفضاء الصحراوي بشكل مغاير عما سبقها، لظلت في الحقيقة باقي الأعمال مغمورة، وقليلة - وإن كانت متميزة - قليلة جدا مقارنة بما كتب الراوي العربي عن المدينة ومخجلة جدا بالنظر إلى ذلك الماضي الحافل بأعجاز الصحراء، وبصور الاحتفاء بها وبأهلها، وبصور التفاعل مع مختلف ظروفها.

وعلى الرغم من ذلك برزت بعض الأعمال الروائية العربية، استطاعت أن تلفت نظر النقاد إليها، أشار إلى بعضها (سعد محمد رحيم) وذكر منها : رواية "فساد الأمكنة" لصاحبها "صبري موسى"، وروايات "النهايات"، "سباق المسافات الطويلة" و"مدن الملح" بأجزائها الخمسة ل"عبد الرحمان منيف"<sup>14</sup>، كما أشار غيره إلى كثير من الأعمال الفنية التي حظيت الصحراء فيها بالتفاتة طيبة، حاول من خلالها أصحابها فك العزلة عن هذا الفضاء الفسيح الذي تناسه الكتابة الروائية ردحا من الزمن بسبب الاصطفاف إلى جانب المدنية، إلا من بعض الأقلام التي ظلت وفيه لعهد الصحراء تكتب عنها قدر المستطاع ولو من باب فرض الكفاية .

روايات شكلت محاولة تصالح الإنسان العربي مع ماضيه، ومحاولة العودة إليه لتصحيح مساره نحو مستقبله، فليست هناك أمة تقدمت في المجال العلمي وتطورت في أشكال الحياة بالانقطاع عن موروثها الحضاري القديم، وليست هناك أمة عرفت الصحراء وخبرتها وتعایش أهلها معها في ماضيهم مثلما فعلت الأمة العربية، وقد برز في هذا المجال مجموعة من الروائيين العرب نذكر منهم

:، أحمد إبراهيم الفقيه، ميرال الطحاوي، رجاء عالم، عمر الأنصاري، موسى ولد ابنو كرواتية، نهي جميل صالح، سلمى علي الغفلي، وجهاد الرحي .

أما في الجزائر فيمكن أن نشير إلى بعض التجارب الروائية والتي منها : روايتنا "طبيب تينكتو"، و "حرز تالا" لعمر الأنصاري، مريم بين النخيل "Myriem dans les palmes"، لمحمد ولد الشيخ البشاري، "راهبة الصحراء: L'odyssée d'une religieuse au Sahara" لزايد بوفلحة ورشيد بوجدرية في رواية "تيميمون" الصادرة بالفرنسية ولحبيب السايح في روايته " تلك المحبة"، وعزالدين ميهوبي في رواية " اعترافات أسكرم"، وكذا السعيد بوطاجين في رواية " أعوذ بالله " وغيرهم.

إضافة إلى أبناء الصحراء الذين ظلوا وإلى وقت قريب، يتهيّبون الكتابة عن عوالم أمكنتهم، إما بسبب قلة الجرأة، أو عدم الثقة، ولعلّ أولها كانت لحسين فيلاي - رحمه الله - في نص "اليربوع"، أعقبتها محاولات : عبدالله كروم في روايتي "حائط رحومة، مغارة السابوق"، عبدالقادر بن سالم في رواية "الخيل تموت واقفة أو ما تبقى من ذاكرة واد قير"، الحاج أحمد الصديق في روايتي " مملكة الزيون، كامراد"، عبدالقادر ضيف الله في رواية "تنزروفت"، جميلة طلباوي في رواية "الخاوية"، حفيظ جلوي في "رواية على الرمل تبكي الرياح"، محمد مرين حسن في رواية "عرائس الرمل"، ومولود فرتوني في رواية "سرهو"...، وهي محاولات قد تكشف عن كثير من الملامح الفنية المستجدة للفضاء الصحراوي، متى تحسن الوضع النشر معها، ورافقها النقد، واهتمت بها الدراسات الأكاديمية، دراسة وتحليلاً، ووجد بعضها الطريق إلى الترجمة لبعض اللغات الأكثر مقروئية، ولكنها تبقى على الرغم من ذلك قليلة، لم تستطع أن تجيب عن كثير من الأسئلة التي ماتزال معلقة لحد الساعة تنتظر الإجابة تخص عالم الصحراء.

#### رابعا : تيمة الفضاء الصحراوي عند الكوني :

يعد إبراهيم الكوني واحد من هؤلاء القلة الذين كتبوا الصحراء، وذلك من خلال تمييزه في الأعمال الروائية التي قدمها والتي تشكلت من خلالها الصحراء عالما سرديا مفتوحا على المغامرة والتجريب، فالكوني " واحد من الأوائل الذين اخترعوا الصحراء في أعمالهم السردية الخالدة - السحرة، نريف الحجر التبر- ووسعوا من هذه النظرة الضيقة لهذا الكون المتسع الرحيب ونقلوها من كونها نظرة مادية سياحية، لكونها ملاذا للمخيال وفسحة للإبداع من خلال هاجس الفرد في



مواجهة المكان في هذا الفضاء المترامي الأطراف، أو تكون الصحراء قد تكلمت بلسانه مُستعطفه مُسترجمه من رضعوا تعسفها منذ الأزل<sup>15</sup>، تعكس كثير من أعماله فلسفة الإنسان في الصحراء وطبيعة صراعه مع فضاءها ذي المزاج الحاد، وسعي هذا الإنسان إلى البحث عن ذاته من خلال تعدد تجاربه، من خلال الرحلة، أو الحكاية، أو مختلف الطقوس التي يتعمد التقرب بها من الصحراء، سواء كانت تلك الطقوس من وحي الواقع، أو كانت من وحي الأسطورة والخيال وحسب نظرة (محمد سعد رحيم) فإن الكوني استطاع أن يخلق "تنويعات شتى في أثناء اشتغاله على الموضوع ذاتها ليضيء كل مرة جانبا آخر من حياة الصحراء، وليدشن في كل مرة أفقا دلاليا جديدا"<sup>16</sup>، بل ويذهب الكاتب إلى أبعد من ذلك في نظرة الكوني للصحراء: "ما فعله إبراهيم الكوني أنه رسم الصحراء في عزلتها الكونية وفي عذريتها وتمنُّعها حتى بعد تصديدها لغزو الأعراب (المجوس والفرنسي) وإصرارها على البقاء مهذا للحكايات العجيبة والأساطير، وعالما فسيحا مقفرا للإنسان"<sup>17</sup>

والمكان في روايات الكوني ليس تلك الخلفية الجغرافية المحضة وإنما هو قيمة فنية " لا يقتصر دوره على تقديم الاستراحة للساد، أو الوقفة الوصفية التي تعدل بنا من الشعور بالزمن المتدرج نحو الخاتمة"<sup>18</sup>، باعتباره مكونا مهما من مكونات الخطاب الروائي الحديث، وكل تغيير يلحق بنية المكان تنبني عليه تغيرات أخرى تتبعه تمس باقي المكونات الأخرى، وقدرة الكوني على التخييل هي ما تزيد في فلسفة المكان لدية، وتجعله في طوابعه كبيرة ليقبل التحول من الواقعي للخيالي ومن الحقيقي للأسطوري والعجائبي، وقد حملته بكم هائل من العادات والتقاليد والمعتقدات، التي طالما دافع عنها سكان الصحراء بشراسة متناهية، من هنا تنكشف لنا ميزة أخرى عند الكوني وهي طاقاته الوصفية المتجددة، التي تمكنه من تلوين الفضاء الصحراوي القاحل بكل الألوان ومن تحريك سكونه المطبق بشيء من الحركية والدينامية، بحيث أنه "إذا كان السرد يشكل أداة الحركة الزمنية في الحكاية فإن الوصف هو أداة تشكل صورة المكان، ولذلك يكون للرواية -أية رواية- بعدان : أحدهما أفقي يشير إلى السيرورة الزمنية، وآخر عمودي يشير إلى المجال المكاني الذي تجري فيه الأحداث، وعن طريق التحام السرد والوصف ينشأ فضاء الرواية"<sup>19</sup>

وقد استفاد منه كتاب رواية الصحراء كثيرا في فهمهم لقيمة الفضاء الصحراوي وطريقة تقديمه

للعالم، من ناحية اللغة ومن ناحية التجديد في فضاء الرواية ومضامينها، خصوصا

وأن جل رواياته تجري أحداثها في فضاء صحراوي رحب .  
فلماذا لم يتكرر الكوني في كل منطقة من مناطق هذه الصحراء الممتدة على مرمى البصر،  
بما أن أمكنتها وإن اختلفت طوائف السكان فيها فإنها تخضع لفضاء صحراوي موحد؟.  
ولماذا لم يصل بعد كتاب الرواية العربية في الفضاء الصحراوي خصوصا أبناء الجنوب منهم  
إلى ما وصل إليه الكوني مبكرا من تألق وتفرد وتميز في جل أعماله الفنية؟؟  
أليست الصحراء هي الصحراء ! ؟  
أو ليست الرواية اليوم قادرة على تمثل الصحراء وعلى التعاطي معها بكل حمولتها التاريخية  
والعجائبية أكثر حتى مما تمثلها الشعر ذات يوم؟؟  
أليست الصحراء فضاء مغريا للرواية العربية الباحثة عن تجريب أشكال سردية مستحدثة ؟  
أم تكن الصحراء منطلق تميز الفرد العربي ذات يوم، وموطن تفجر طاقاته الإبداعية؟؟  
لماذا انحصر الإبداع الروائي في المدينة على ضيق مجالها الجغرافي وانحسر حينما تعلق الأمر  
بالصحراء على شساعتها ؟  
كيف يستطيع كتاب الرواية من أبناء الجنوب توظيف رواياتهم لخدمة التنمية المستدامة  
لصالح منطقتهم ؟  
هل سيحظى الفضاء الصحراوي بشي من التميز والتفرد في كتابات أبناء الجنوب ، أم أن  
المهمة ستبقى موكلة لأبناء الشمال، كلما ارتحلوا إليها طواعية، أو دفعت بهم النوائب والمحن  
لمعاشرة الصحراء حتى يكتبوا عنها ؟  
أم أن الحل سيكون بعيدا عن هذا وذاك ،وبما أن التصحر ظاهرة جغرافية نشيطة فإن  
الصحراء بعد برهة من الزمن هي التي سترحل لتجاور كتاب الشمال ،وتزاحم مدنهم ومن ثم يكون  
من المنطقي جدا أن تصبح الكتابة شيئا عاديا ومألوفا في فضاءاتها المختلفة والمتعددة. ؟  
أم هل هي اللعنة: لعنة الأرض، لعنة الأجداد ولعنة الجفاء لهذا الماضي الجيد؟" الأرض  
في كل الثقافات منذ أقدم الأزمان، ليست مجرد أرض، ولكنها كيان مقدس، وانتهاك هذا الكيان،  
بأي صورة من الصور، ضرب من الخطيئة، ولذلك لا بد أن يستنزل اللعنة"<sup>20</sup>

أسئلة قد تترك النقد وأهله، والسرد ورواده، وتدفع بالعقل إلى الاستعانة بكل العلوم والفنون ما يميل منها إلى المنطق وما يتعداه إلى الفلسفة بل وإلى ما يتخذ من الأسطورة والخيال وسيلة وغاية، علّه يجد مدخلا للإجابة عن بعضها .

أسئلة ستبقى تراود كل عربي غيور على تراث أمته - في ظل العولمة والرقمنة - يصبو إلى أن يكون الإبداع مجالاً لمزاوجة الحاضر بالماضي في بوتقة واحدة من أجل مستقبل مشرق، وقد يكون المنفذ لتحقيق ذلك، جلسة شاي خاصة تعطينا القدرة على استحضار أرواح الماضين ومساءلتهم، كما يكون للسحرُ القدرة على استحضار أخبار الغيب الدفين.

#### خامسا: السرد والأشكال الثقافية بالصحراء : طقوس جلسات الشاي تحديدا

تحرص رواية الصحراء على الاستفادة قدر الإمكان من كل الأشكال الثقافية التي تزخر بها الحياة في الصحراء ،كالرقص والغناء واللباس، وخصوصيات الاحتفال ،وطرق إعداد الطعام والشاي، حيث تتميز جلسات إعداد الشاي الليلية، عن غيرها من أشكال الثقافة الصحراوية بحضورها اليومي القوي، ومع ذلك تبقى درجة الاهتمام بها ثابتة لا تتغير، باعتبارها تقليدا متوارثا عن الأجداد، تخضع طقوسه لكثير من العناية، مما يسمو بها لدرجة المقدس، لذلك يعقد البدو مجالسهم في مقاهي شاي مفتوحة على الهواء الطلق، يطلقون من خلال جلساتهم تلك المناسباتية عادة، العنان لضحكاتهم التي كبتها الأيام طويلا، بحيث تكون جلسة الشاي الليلية هي أول وصلات افتتاح السهرة "وهذا أمر لا غرابة فيه إذا اعتبرنا انعدام وسائل الترفيه والتسلية في الصحراء بصفة عامة، والشاي يمثل عملية معقدة للتسلية فإن الكانون أو الموقد الذي يغلي عليه الماء يعتبر بمثابة حلية اجتماعية للسمر والتدفئة في ليالي الصحراء الباردة، وإبريق الشاي نفسه يمثل عقدة كاملة من العادات والتقاليد وحوله يدور الحديث الطلي وينشد الشعر وتروى القصص وتحكى التواريخ، وأي شيء أجمل وأروح إلى النفس من السمر حول إبريق الشاي في ليالي الصحراء المقمرة!"<sup>21</sup>، جلسة شاي في ظاهرها ولكنها طقوس كاملة في مغزاها .

وقد اهتم كتاب الرواية الصحراوية بفحوى تلك الجلسات الشايية بشكل خاص، فقد ألهمتهم أفكارا متفردة، وزودتهم بأسس إبداعية، ليخوضوا في أشكال سردية تجريبية حديثة، فحكفوا على محاولة فهم مغزاها، وتأويل طقوسها، والاستفادة مما يدور فيها من قصص وحكايات، وأثثوا لكثير من متونهم السردية مما حملته تلك الجلسات، من طرائف وأخبار عن

الأولين والآخرين، وعن مغامراتهم في الأسفار والرحلات، وعن صراعاتهم مع الجن...، وهدفهم من ذلك كله، محاولة ربط ما يجري في مجالسنا الشايية اليوم بتلك التي كانت في الماضي، وقد انفتح لهم من ذلك، عالم خاص، فيه من حكايات الواقع والخيال ما يغري، ولكنه عالم صعب المراس، فليست الكتابة عن حياة الماضي مجرد ضرب من التكهينات أو شطحات خيالية ولكنها في الحقيقة مسؤولية فنية كبرى، لأنها بكل بساطة محاولة إحياء جزء من ذلك الماضي، والاستفادة منه في بناء الحاضر، حتى بما كان عليه من نقائص وسلبات وهنات ومثالم .

لهذا كانت الجلسات الشايية من خلال ما تطرح فيها من قضايا تخص القبيلة أو المجتمع أو الأمة بل وحتى الإنسانية جمعاء أو من خلال ما يتبادلها الناس فيها من قصص وحكايات وما يتعاورونه فيها من أسرار خاصة، بالصحراء وبحياة أهلها، كانت هذه الجلسات في حد ذاتها عوامل ترابط، واتصال بين السلف والخلف، فكل حكاية تفتح على صفحة من الماضي بتلك الصفحة عشرات الحكايات وهكذا...، وليست هناك طريقة أفضل لقراءة الماضي والتعمق فيه، ومحاولة الوصول إلى أكبر قدر ممكن من معطياته، في أبعد لحظة تاريخية ممكنة، من الانطلاق من الحاضر، وربط خيط المفقود بالموجود، وتتبعه، والاستعانة بالشاهد للوصول للغائب، والانطلاق من الواقع، لولوج عالم الخيال الأسطوري .

وليس الشاي عندهم مجرد مشروب وكفى ولكنه دواء وأكثر، يدمن عليه ساكن الصحراء لأنه يمثل عنده علاجا روحيا ولذلك نجده "لا يستطيع أن يبقى يوما واحدا بلا كأس من الشاي الصيني الأخضر، عندها سيصيبه الصداع والدوار ويهاجمه المرض حتى يلزم الفراش، ولذا فإنه يحرص على أن يتزود بالشاي قبل أي زاد آخر في رحلاته، يحتسي الدور الأول والثاني في الصباح وثلاثة أدوار بعد الظهر، أما في المساء فيبقى الوعاء يئن على الجمر لوقت متأخر من الليل حتى يغلبه النعاس ويذهب لينام، إنه يعبد الشاي المركز المتقن الصنع ويعتبره دواء لكل الأمراض"<sup>22</sup> وقد لا يكون هناك رابط أقوى من جلسة شاي في استدعاء مخزون الماضي، واستدراج ما يخبي من حكايا وأساطير، فالانفتاح على الماضي وهو الهدف الأهم للكتابة في أدب الصحراء، وإن كانت هناك أهداف أخرى مهمة ودوافع كثيرة متعددة ومتنوعة.

#### سادسا: دوافع الكتابة السردية في تيمة الفضاء الصحراوي :

تعددت الدوافع إلى الكتابة في الفضاء الصحراوي، طبعا حسب منطلقات كل كاتب من

جهة، وحسب قيمة الفضاء الصحراوي عند الكتاب من جهة أخرى، هذا بالإضافة إلى تأثير الجغرافية والتشبع الثقافي، ويمكن أن نقف عند بعض هذه الدوافع لنذكر منها :

أ- الصحراء فضاء بَكْرٌ :

على الرغم من أن الكتابة في الفضاء الصحراوي تأسست فعليا من خلال كتابات بعض الروائيين العرب الذين خلفوا في هذا المجال أعمالا قيمة مثلما فعل الكوني وغيره، احتفى بها النقد وما يزال، وتركت انطبعا حسنا لدى القارئ على المستوى العربي والعالمي، فإن هذا الميدان ما يزال بكرة، وما يمكن استهدافه فيه من مجالات لا تعد ولا تحصى، نظرا لما يزرع به من تواريخ الأمم الغابرة، التي حلت بالمكان والتي طمست الصحراء كثيرا من جوانبها، وتكتمت عن كثير من عادات أهلها، وتقاليدهم، وطقوسهم الدينية، ونظرا لما يمكن أن تتكشف عنه هذه المجالات من عجيب وغريب، وما تبوح به عند المساءلة من خرافات وأساطير، أو حتى من حقائق نعجز عن تصديقها متى عرفناها فإن ما خفي منذ القلم أعظم، لأن تاريخنا الثقافي يرتبط في وعينا بالمكان ربما أكثر من ارتباطه بالزمان<sup>23</sup> ولأن علاقة الإنسان بالمكان هي التي تحدد قيمة هذا الزمان أو ذلك، وهي التي تفاضل بين الأزمنة أحيانا .

إن ما كتب في شأن رواية الصحراء لشيء قليل فهو غيظ من فيض، ولذلك يكتسي هذا الميدان أهمية كبرى لأنه يمكن أن يزود الرواية العربية بما يؤهلها للعالمية إن استطاع كُنَّاها اغتنام الفرصة، خصوصا من طرف أبنائها، أبناء الجنوب، الذين خلقوا من طبيعتها وتلونت سحتهم بلونها، وعاشروها وتعايشوا معها فصنعوا تاريخهم من تاريخها ولن يكون لهم مستقبل إلا بها، فما عليهم إلا والغوص إلى أعماق الصحراء والنبش فيها، في تراجمها، وفي واحات نخيلها، وفي مياه فقاراتها السطحية والجوفية، ومعاودة دراسة تاريخها من جديد، تاريخ الإنسان فيها حضارة وعمارة ولغة ودينا، بغية الوصول إلى فهم تفكير ساكن الصحراء وطبيعته، ومحاولة فك شفرات كثير من ألغازه، كما فعل كثير من الغزاة الأوربيين قبل فتح الصحراء "يئس فطاف بجمع المعلومات بين الأهالي عن سر تحمل الحمل للعطش شهورا كاملة، استفسر من الشيوخ والحكماء عن أسلوب البدو في تقمص روح حيواناتهم والتطبع بطباعهم، فكانت الإجابة واحدة من الجميع: ذلك سر لا يعلمه إلا الله؛ يذر في البدوي من روح الحمل، ويزرع في قلب الفلاح من نواة النخلة! ويدس غموض الصحراء وراء أقنعة الملتمين"<sup>24</sup>.

ولاشك في أن هذا الإنسان قد خلف لنا من الآثار الخطية والعمرائية، ما ندهش له اليوم وغدا ولا شك أننا نشترك معه في كثير من جوانب الفكر، حتى وإن اختلفنا معه في لغة التعبير، ولكن ذلك ليس عائقا لاستنطاقه ومحاورته " لأن الإنسان يستطيع أن يتحدث أو يناقش أو يتحاور ليس فقط أقرانه وأمثاله من الجماعة اللغوية التي ينتمي إليها، ولكنه يتواصل ويتحاور مع الإنسان بوصفه إنسانا عالميا، وعليه فإن التواصل والحوار الإنساني، لا يتم داخل جماعة معينة فقط، وإنما بين جماعات لغوية مختلفة... وهو ما تعكسه مختلف الحضارات والثقافات"<sup>25</sup>، وليس هناك من يستطيع أن يقرأ تاريخ ساكن الصحراء، وأن يتجاوب مع ما خلفه من تراث عظيم، أفضل من ابن الصحراء اليوم أو غدا، إذا ما تسلح بالعدة اللازمة، لسبب بسيط وهو أن شعورا وجدانيا وخيطا عاطفيا ما يزال يربط بينهما، يفتقده سواه من غير أبناء الصحراء، سواء من الدارسين العرب أو حتى من الرحالة والباحثين الغربيين وقد ثبت تاريخيا بما لا يدع مجالاً للشك أن " الرائد الأوروبي القديم، مثل السائح الأوروبي الحديث، كلاهما يواجه عقبة كبيرة بسبب عدم معرفته باللغة العربية واللهجات البربرية الكبرى - مثل لهجة " التوارق والتبو " وذلك بالإضافة إلى جهله بالعناصر الأساسية في الحياة الاجتماعية التي تختلف بين منطقة ومنطقة، وأن هذا الاعتبار يفسر بعض الفجوات الموجودة فيما كتبه الأوروبيون عن الصحراء وشعوبها، وأن ظهور باحثين من أبناء الصحراء سوف يكون عاملا يساعد على تلافي هذا النقص في المستقبل"<sup>26</sup> وواجهنا اليوم هو محاورة الإنسان الأول، الذي سبق وأن سكن صحراءنا، لنكتب عنه بما فهمناه منه، وبما تواتر إلينا من صور نشاط ذريته من بعده .

#### ب - إحياء التراث

إن إعادة ربط العلاقة بصاحب ذلك التاريخ، أي إحياء ثرات الأقدمين وإعادة دراسته، منهجية كان قد سبقنا الغرب إليها "كان الفكر الأوروبي، ولا يزال، يتجدد من داخل تراثه، وفي الوقت نفسه يعمل على تجديد هذا التراث: تجديد بإعادة بناء مواد القديمة وإغنائه بمواد جديدة، هكذا أعاد الأوروبيون خلال القرون الثلاثة الأخيرة كتابة تاريخهم الحضاري العام بمختلف جوانبه"<sup>27</sup>، فلا يعقل أن نبني حاضرا مبتورا عن ماضيه، ولا يعقل أن نتصور أن ذلك الماضي لم يكن فيه ما ينفعنا ويفيدنا، حتى أكثر مما تقدمه لنا اليوم علوم العصر المتطورة .

وليس بالمقصود بالتراث أن ننظر إليه نظرة قومية فننطلق مما ترك لنا قومنا من العرب في العصر

الجاهلي لأن ذلك كما يرى الجابري "نقطة بداية ضيقة جدا تحرم الثقافة العربية من مجالها الحيوي التاريخي، بل تقطعها عن أصولها، إن الحياة الفكرية والأدبية في "العصر الجاهلي" لم تكن سوى مظهرا من مظاهر ثقافة أوسع، بل لقد كانت مجرد امتداد خافت لحقل ثقافي واسع وعميق وغني تمتد جذوره إلى المصريين القدماء والسومريين والفينيقيين واليمنيين القدماء والسريانيين وسكان المغرب العربي الأمازيغ<sup>28</sup>.

فإذا استطعنا فهم كثير من جوانب حياة الأبعاد، من سكان صحرائنا، لم يكن يعوزنا شيء في فهم الأقارب، خصوصا من الذين ما تزال معالم وجودهم ظاهرة جلية، ولكننا حينها سنكون في حاجة إلى جرعة خاصة من الجرأة في تخطي الطابو / المقدس، وأن نكسر جرة المسكوت عنه في كثير من الميادين في غير تجاوز شرعي ولا تطاول أخلاقي .

كثيرة هي المواضيع اليوم التي هي في أمس الحاجة لتناولها، بطرق مباشرة، أو غير مباشرة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، قضية القبيلة في الصحراء، وشأن السيد فيها، وكيف أنه اعتاد تعبيد قلوب العبيد، على إظهار مثالية الطاعة وتقديم اسمي معاني الولاء، ومنها حياة شيوخ الزوايا، وما تهمله عليهم العامة من مثالية، توصلهم لدرجة العصمة أحيانا، ومنها قضية اختلاط الأنساب بين سكان الصحراء من أشرف وطوارق وحراطين وعبيد، نتيجة كثرة الرحلات سواء للتجارة أو للغزو أو الحج أو غيرها، ومنها قضية الخدم والإماء والعبيد، حياتهم ومشاعرهم وتفكيرهم وأحلامهم وآمالهم...، هذه الظاهرة التي ظلت منتشرة إلى عقود قريبة، ومنها قضية الأولياء الصالحين وطقوس زيارتهم السنوية، وخبايا تعلق الناس بهم، ومنها قضايا السحر والشعوذة، وتأثر كثير من ممتهمي هذه الطقوس بالدول الإفريقية المجاورة، التي شاعت بها صناعة السحر في عهود متقدمة، حتى أصبح يضرب بها المثل في اتقانه والتفنن في طريقه .

هذه نماذج من مواضيع تصلح للكتابة الروائية فيها ولكنها كما قلنا سلفا، تحتاج لجرعة من الجرأة، ولن يستطيع أن يبدع فيها إلا ابن الصحراء، لارتباطه بها جينيا، ونفسيا ولنا فيما تناوله الروائي الصديق حاج أحمد بدايات محتشمة من خلال عملين روائيين أنجزهما حتى الآن<sup>29</sup>. وهي طابوهات سهلت العولمة تجاوز حدودها، طبعا حسب طبيعة كل مجتمع، وحسب مبادئه وقيمه. إن الشعور بالمكان بطريقة مغايرة، والنظر إليه من زوايا مختلفة -مع تطبيق النظرة التقليدية للأشياء - والانطلاق نحو التعامل معه بوسائل مستعدة وتصويره بدلالات عميقة ينهض بها

الخطاب الروائي يعكس الحياة الإنسانية في مجمل مظاهرها، لهو كفيل بتشكيل خلاصة بيئية وتاريخية بكل عاداتها وأعرافها وتقاليدها، فلا غرو أن يعتبره الكاتب والمتلقي أيضا تعبيرا عن الهوية، فنجد الكثير من المبدعين وعلى رأسهم الكوني يحاولون من خلاله "التعبير عن تمسكهم بهويتهم، لاسيما إذا كانوا ممن يعانون أصلا بسبب تلك الهوية، كأن يكونوا مقيمين بصورة قسرية، أو اختيارية خارج المكان الذي عرفوه وأحبوه، فتراهم دائمي الحنين، والتوق إلى ذلك المكان يصورونه فيما يكتبون، ويتلذذون بذكره، وذكر ما يتصف به تشير إلى ما يؤمنون به ويفضلونه على غيره، وعلى سائر الأماكن، والأشياء" <sup>30</sup>.

وما تعدد الأمكنة بالصحراء وتلوغها وتفاضل مراتبها إلا دليل على أن الفضاء الصحراوي يحمل في طياته متناقضات كثيرة: "الصحراء أيضا صديق يقبل على الناس في ثياب العدو، في الصحراء أيضا خلاص لا يدره إلا ذوو الألباب، الصحراء أيضا وصية لأنها رسول الصحراء، وصية الوصايا لأنها الرسول الأنبيل من كل الرسل... لأنها تحمل في عباها عنقاء اسمها الحرية" <sup>31</sup> هذه المتباينات هي ما يكسبها كثيرا من التغيير والتبدل ويعطيها فرصة تناول كل المواضيع دون استثناء، طبعا حسب الظروف والأزمنة والأمكنة.

إن الكتابة السردية عن الفضاء الصحراوي، ستجر صاحبها لا محالة إلى عالم من التخيل، مبدأه واقعي، في شكل أمكنة وأزمنة معروفة لديه بالحس أو الوصف، ومنتهاه أسطوري، وهذا كله من أجل إخفاء صور ما يعتريه من نقص، في التعبير عن هذا الفضاء الصحراوي المترامية أطرافه والممتدة في الماضي، فهو يستعين بالخيال لإخضاع ما نأى عنه منه "ويبدو هذا المكان السردى يختلف في طبيعته التكوينية عن أي مكان واقعي نشاهده، أو نعرفه وذلك لأن الروائي أو القاص وهو يصور الواقع لا بد أن يخرج به إلى عالم التخيل؛ ليخلق عالما جديدا تتشكل أبعاده من اللغة النفسية والاجتماعية بالدرجة الأولى" <sup>32</sup>.

### ج - محاولة تأصيل فن الرواية العربية

من المؤكد أن لهذا الفن جذورا مترامية الأطراف في تاريخ الإنسان العربي، وبما أن حياة العربي ارتبطت بالصحراء فإن هذا الفضاء كان هو مسرح انفعالاته ومحل البوح عن مشاعره وعواطفه، فقد خلف لنا العربي في الصحراء ذكرا خالدا لا يبلى مع مرور الزمن، تعددت أشكاله من سيرة لقص ملحمي لوصف شاعري ... ، ومع تطور الحياة البشرية اليوم بفعل عوامل كثيرة، وارتباط



الإنسان بالمدينة فقد غلبت عليه صفة التمدن أكثر، لعل أوضح صورها هي سهولة الاتصال بالغرب، والأخذ عنه والتأثر به في كل مجالات الحياة، سواء بشكل طوعي أو بشكل إجباري حسب ما أملت ظروف كل عصر، ففي وقت الاستقلال يكون التأثر أميل للطوعية، أما في زمن الاحتلال فيكون التأثر إجباريا، ومن ذلك ما حدث من تأثر بليغ لدرجة الخطورة بآداب وثقافات الغرب في نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي، وقد تجلت بعض ملامحه كما ذكرنا في اللغة وفي الرواية بشكل صارخ، حتى أنه أصبح هناك من العرب من يسعى جاهدا ليثبت للعالم، أن الرواية العربية الحديثة ليست لها أي علاقة مع أشكال السرد العربية القديمة، وإنما هي مجرد نتاج تأثر العرب بالغرب .

وهذا الدافع لا يقل قيمة عن غيره من الدوافع الأخرى، لأن محاولة إعادة كتابة تاريخ العرب الأوائل، على كافة المستويات السياسية والدينية والثقافية، أمر ضروري بل أكثر من حتمي وبشكل مستعجل، وذلك من خلال كتابة روايات ذات طابع صحراوي محض، يحاكي إلى درجة كبيرة حياة الأوائل أو يقاربه، مادامت الظروف الحياتية لم تتغير كثيرا بالصحراء، ومادامت نفس الوسائط التواصلية موجودة، وأهمها اللغة العربية والعادات والتقاليد ،

إن الصحراء كما كانت منذ القديم، منبعا للإلهام وللخلق والإبداع، فإن طبيعتها العصبية على التحديد، المنفتحة على المجهول، المكتنزة خيالا عجائبيا، وغواية، هي ما تدفع الروائي اليوم لتتبع متاهاتها، والبحث في حكاياتها وأساطيرها والنش في ثرائها، بل والغوص في باطن ماضيها، في شكل من أشكال التعبير عن مكنوناته، وخیالاته وأوهامه، هو ما يدفعه اليوم أكثر من أي وقت مضى للارتباط القسري بترائه، وبماضيها، وبكل الأشكال التي انتسب إليها جنسه الأول في أي عصر من العصور عاش، وبأي لغة من لغات التعبير عبر في هذا الفضاء الصحراوي منذ أن خلق الله الأرض وما عليها .

#### د - الدفاع عن قيم الصحراء :

من المتعارف عليه محليا وعالميا أن للصحراء قيما ومثلا خاصة، تربي عليها أصحابها منذ القديم، وما يزالون يحافظون على كثير منها، وقد تجلى انعكاس هذا الفضاء الصحراوي بطبيعته الخاصة على الطبائع العامة لسكانه، فظهرت فيهم قيم الصبر والتحلي بالجلد والقوة، وتعلموا من شح تلك الطبيعة كيف يحيون بالقليل حتى مع غيرهم، مما وطن نفوسهم على فضيلة الكرم،

واصطبغت أنفسهم بصفاء السريرة وقوة الذاكرة في شيء من البساطة والعفوية وحبب فيهم قيم الشجاعة والكرم وإغاثة الملهوف وعشق الوطن والتمسك به رغم صعوبة ظروفه، كما عزز ثقافة العمل من خلال الرحلة، وخاصة الرحلة البرية التي يتبدى من خلالها أروع جماليات النص، بل جماليات الحياة المضمرة، حيث لا يستكين الإنسان لنسق المكان، ولا لسطوة الزمان، بل يبقى واقفا وقفه صمود وشموخ، يتغنى بوطنه الصحراء، ويعمل لأجل حياة أفضل له ولأسرته ولقبيلته<sup>33</sup>، ولكن مع ذلك تبقى هذه القيم مهددة بالضياح في زمن العوامة، وطغيان الحياة الرقمية على كل مناحي حياة الإنسان، وعليه توجب حماية هذه القيم عن طريق تحصين الفرد بما يناسبه من مبادئ وثوابت عاش عليها أسلافه، ومرافقته في الانفتاح على المستجدات الثقافية بما يسمح له من التعامل معها، وفق خصوصياته المكانية .

لذلك فإن كتابة رواية الصحراء فيها نوع من التحدي الكبير، الذي تفرضه الجوانب الاجتماعية والأخلاقية، ويدعو إليه الضمير الإنساني، ومشكلة الإنسان الصحراوي بصفة عامة، في أي بلد من بلدان العالم، أنه لم يتخطَّ بعدُ العنصرية المقيتة، ونظرة الاستعلاء، التي يرمقه بها الآخر، فيعييه بلونه أو بلهجته، أو بمستواه الثقافي، أو حتى بمكان تواجدده، وهذا ما خلف عقدة تاريخية في نفوس كثير من شعوب الصحراء، ما تزال تعاني من آثارها حتى يومنا هذا، انجرت تبعاتها على البشرية قاطبة، مثلما يعاني اليوم العالم من ظاهرة الهجرة غير السرية، وما يحدث في كثير من دول الصحراء الكبرى بإفريقيا خير دليل .

ما تزال هذه الشعوب تعاني من النظرة الدونية للعالم لها خصوصا العالم الغربي، الذي فضل استغلال خيراتها المادية والبشرية على أن تبقى على ما هي عليه، تزرع شعوبها تحت نير الفقر وتعيش في جهل مطبق وتموت بأمراض فتاكة، وأوبئة قاتلة وحتى عندما تسلم من بعضها مثل وباء "الكورونا"<sup>34</sup> مثلا، ولا يفتك بها أكثر مما فتك بالغرب، يخرج علينا من بعض أشباه الأطباء في الغرب من يقترح - في نوع من التبجح - أن تُستَعْل الشعوب الأفريقية في إجراء تجارب طبية لإيجاد الأدوية المناسبة لهذا الوباء ليعالج به الإنسان في الغرب ....

لهذه الأسباب كانت الرواية مدخلا كبيرا لتصليح العلاقة بين ساكن الصحراء، وغيره من جهة وتصحيح وجوه النظر إليه، من جهة أخرى، كما أنه بإمكانها أن تعري عن النقائص البشرية وتفضحها، في أي موضع كانت " إن هذا الفن يستطيع عبر إمكاناته السردية والجمالية، أن يفضح

أوهام الذات وانحرافات الفكرية والشعورية خصوصا حين تسجن الآخرين في انتماءات ضيقة "مذهبية أو عرقية... الخ" مثلما يستطيع التغلغل إلى أعماق الروح الإنسانية، ليبرر قدرتها على تجاوز هذه الانتماءات، والدخول إلى عوالم رحبة، تحرر الإنسان من إكراهات تربي عليها، عندئذ يمكن المتلقي أن يعايش مكونات أصيلة تجمع البشر، ويتبين عبر هذا الفن، كيف يتحول الاختلاف إلى رحمة، فيؤسس لثقافة يفتح فيها الإنسان على أخيه الإنسان ويحترم ما يميزه<sup>35</sup>. ولذلك حينما تكتب رواية الصحراء وهي مستندة إلى الماضي بتراثه الثَّرى، ستجد فيه ما يشفي غليل الإنسانية، إلى نماذج مثالية، تعلم الإنسان احترام أخيه الإنسان بغض النظر عن أي خصيصة تميزه، ولنا في ما حدث في صحراء شبه الجزيرة العربية قبل أربعة عشر قرنا، حينما بعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى البشرية برسالة الإسلام، وكيف أنه استطاع أن يجعل من تلك الصحراء القاحلة مركز العالم في فترة وجيزة، يستقي منها الناس قيم السلام والأمن والحرية والعدالة، مما لن يصل إليه العالم اليوم ولو تسلح بتساسة من القوانين الوضعية، واستعان بكثير من الهيئات والمنظمات الدولية، لأنها ستبقى فارغة من فطرة الإنسان، ومن روح الأديان .

– خاتمة :

مما لا شك فيه أن تيمة الفضاء الصحراوي سيكون لها حضورا بارزا في الكتابة الروائية التي تتخذ من الصحراء موضوعا ومنطلقا لها، لاعتبارات فنية وتاريخية وإبداعية، على الأقل ستكون هذه نظرة النقد حسب توجيهاته وتوصياته وحسب مرافقته المتواضعة للنمجز السردى في الفضاء الصحراوي حتى الآن، ولكن الواقع – للأسف الشديد – يقول غير ذلك حيث ما تزال "عالمية الكتابة" في الفضاء الصحراوي في بداياتها تحاول فرض نفسها مثل باقي الأشكال السردية الأخرى حتى تتمكن من الانطلاقة الفعلية والمساهمة بشكل جدي في خدمة الرواية العربية وريط حاضرها بماضيها لتحقيق مزيد من التطور والتألق، ويُحسب هنا – بالطبع – الفضل لبعض الكتاب الذين حاولوا أن يتخصصوا في الفضاء الصحراوي مثل إبراهيم الكوني وأحمد منيف، وأن يكسبوا هذه التجربة السردية نوعا من التفرد والخصوصية وأن يرتقوا بما لمصاف العالمية مما توافر لديهم من عبقرية في الإبداع السردى .

إن الدوافع للكتابة في الفضاء الصحراوي كثيرة ومتعددة وتختلف باختلاف الكتاب وباختلاف نظرهم للفضاء الصحراوي وكذا باختلاف جغرافيتهم التي ينطلقون منها للتعبير عن

المضمون المرجو معالجته، ولكن تبقى هناك دوافع مشتركة ومنها مثلا تمثل قيم ومبادئ الصحراء والدفاع عنها ومنها أيضا كون الصحراء فضاء بكر للإلهام والإبداع، ولكن مع هذا سيكون للكتابة في الفضاء الصحراوي مستقبلا مشرقا نظرا لما تفسحه " تيمة الفضاء الصحراوي " أمام عالم الفن الروائي من انفتاح على آليات سردية غاية في الدهشة والمتعة ونظرا لما توفره للروائي من عوالم سحرية وعجائبية ممتعة ومثيرة يكتشف من خلالها آفاق واسعة للمغامرة والتجريب.

هوامش

- 1- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع 1399هـ/ 1979 م الجزء 03، مادة ( صحر )، ص 333-334.
  - 2 - ينظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، المجلد الرابع - مادة (صحر)، ص 443.
  - 3- شاكر النابلسي، جماليات المكان في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات، ط، بيروت، 1994، ص 86.
  - 4- ينظر حمد بن ناصر الدخيل، أثر الصحراء في نشأة الشعر العربي وتطوره حتى نهاية العصر العباسي الثاني، مجلة جامعة أم القرى السعودية، العدد 23، ديسمبر 2001.
  - 5 - الزواوي بغورة، الفلسفة واللغة، نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، دار الطليعة للطباعة والنشر ط1، 2005م، بيروت، لبنان، ص 77.
  - 6- آلن روجر، الرواية العربية- مقدمة تاريخية، تر: حصة إبراهيم المنيف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1 1986م، ص 7.
  - 7- عثمان الميلودي، العوالم التخيلية في روايات الكوني، ط1، 2013م الناية للنشر والتوزيع - محاكاة للنشر والتوزيع - الشركة الجزائرية السورية لنشر والتوزيع، بيروت (لبنان) ص 137.
  - 8 - دعت منظمة اليونسكو في دورة نوفمبر 2001م إلى اعتبار الصحراء تراثا طبيعيا وثقافيا في حاجة لرعاية واهتمام .
  - 9- محمد عابد الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت لبنان، 1990م ص 34.
  - 10- سعد محمد رحيم، الكتابة بلغة الصحراء، إبراهيم الكوني وآخرون، الحوار المتمدن، العدد 1635، بتاريخ: 2006/08/07م، سا
- (<http://www.ahewar.org/search/Dsearch.asp?nr=1635>)10:39

- 11- إبراهيم الكوني، الخسوف 3 (أخبار الطوفان الثاني)، تاسيلي للنشر والإعلام، دار التنوير للطباعة والنشر، ط2، 1991م، ص30-31.
- 12- تجارب رقان النووية: عشرات التجارب النووية التي أجراها الاستعمار الفرنسي بصحراء الجزائر بمنطقة رقان بين: 1960 و1966م ومن أشهرها التجربة النووية الأولى: اليربوع الأزرق والتي جرت يوم 13 فيفري 1960م.
- 13- ينظر: سعد محمد رحيم: الكتابة بلغة الصحراء.
- 14- - سعد محمد رحيم، مرجع سابق.
- 15 - سليمان قاشوش، مقال: المنجز السردي في الفضاء الصحراوي - شعرية الإكراه في رواية كاماراد، مجلة مقاربات، العدد الثلاثون، المجلد الثاني، جامعة الجلفة، الجزائر، 2017م ص 36.
- 16- سعد محمد رحيم، مرجع سابق
- 17- سعد محمد رحيم، مرجع سابق
- 18- إبراهيم خليل، بنية النص الروائي (دراسة)، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط 01، الجزائر، 2010م ص 140.
- 19- حميد الحميداني، بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي)، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1991م، ص80.
- 20- إبراهيم الكوني، وطني صحراء كبرى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت (لبنان)، ط1، 2009م ص7
- 21- اسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب ص 37/36
- 22- إبراهيم الكوني، الخسوف الجزء الأول (البئر)، تاسيلي للنشر والإعلام، دار التنوير للطباعة والنشر، ط2، 1991م ص 112-113.
- 23 : محمد عابد الجابري، مرجع سابق، ص39.
- 24- إبراهيم الكوني، الخسوف 4 (نداء الوقواق)، تاسيلي للنشر والإعلام، دار التنوير للطباعة والنشر، ط2، 1991م ص 157.
- 25 : الزواوي بغورة، مرجع سابق، ص217.
- 26 : اسماعيل العربي : مرجع سابق، ص 9
- 27 : محمد عابد الجابري، مرجع سابق، ص 35.
- 28 : محمد عابد الجابري : مرجع سابق، ص 41.
- 29: ينظر: رواية مملكة الزيوان، ورواية كاماراد - رفيق الحيف والضياح - للروائي الجزائري الصديق حاج أحمد.
- 30- إبراهيم خليل، مرجع سابق، ص 141.

- 31 - - إبراهيم الكوني - نداء ما كان بعيدا - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - ط 02 - بيروت - 2009 م - ص 07
- 32 : حسين المناصرة، قراءات في المنظور السردي النسوي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2013م ص186
- 33- أمل طاهر محمد نصير ن عشق الصحراء وثقافة العبور - ليل ذي الرمة نموذجاً -مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس ( الجزائر )، العدد 4 سنة 2005م، ص13.
- 34- فيروس كورونا أو( كوفيد 19 ): وباء عالمي انطلق من الصين في أواخر سنة 2019م ليتطور لجائحة عالمية خلفت مآت الآلاف من القتلى من مختلف دول العالم، خصوصا بأوروبا وأمريكا .
- 35 - ماجدة محمود، إشكالية الأنا والآخر- نماذج روائية عربية - عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت مارس 2013م ص8.